لماذا عيد الغدير أفضل الأعياد؟

ينزل الدين من السماء من أجل دعوة الناس الى الإيمان والتوحيد، وإقامة العدل وتحقيق الإصلاح.. وهذا ما يلقى صدوداً من قبل العديد من القوى وجماعات السلطة والمال، التي ترى في هذا الدين تهديداً لمصالحها ونفوذها، فتبدأ بمواجهة هذا الدين ودعوته. إلى أن ينتصر الدين، ويثبت أركانه. فيصبح من الصعوبة على تلك الجماعات أن تستمر على منوالها السابق في مواجهة الدين ودعوته. فتلجأ الى تغيير أسلوبها في المواجهة، من دون أن تتراجع عن أهدافها تلك ومشروعها، حين تعمد الى اعتماد أسلوب المواجهة من الداخل(الناعمة)، بدل المواجهة من الخارج (الخشنة). المواجهة غير المباشرة، بدل المواجهة المباشرة. حرف الدين عن مساره، بدل إسقاطه برمّته. التسلل إلى مواقع النّفوذ والتّأثير في الاجتماع الدّيني، بدل الاصطدام به.

وبما أن الدّين هو صاحب التّأثير الأقوى في ذلك الاجتماع، ومن تأويله تُستمد المشروعيّة الدينيّة والسياسيّة، و لتفسيره السلطة الأشد تأثيراً في بناء الوعي المجتمعي والثقافي، وفي السيطرة على المجتمعات والإمساك بها...؛ فإن تلك القوى والجماعات (مترفون، مفسدون، ظالمون، دنيويون، لاحقاً منافقون) تعمد الى محاولة الالتفاف على الدين، والسطو على تأويله، وابتداع تفسير له ولمعانيه- من خلال توظيف الأدوات المنتجة لذاك التأويل والتفسير- بما يعيد إحياء دورها، ويحفظ لها مصالحها، و لتستعيد مشروعها وأهدافه. لكن هذه المرة بلباس الدين، وردائه، وكامل قداسته.

لتكون النتيجة، أن يواجه الاجتماع الديني أخطر تحدٍ له على الإطلاق، عندما يعود ذلك المشروع المعادي للدين، بانحرافه وظلمه وفساده، الى ساحة الفعل و التأثير، وليعمل على إعادة ترسيخ قيمه، و تحقيق أهدافه، وليجهد في إسقاط المعاني الدينية الأصيلة، و ليهدد جميع المنجزات الدينية، بل ليهدد المشروع الديني برمته في أهدافه ورسالته و جميع قيمه الحقة، لكن في هذه المرة بتوسيط الدين نفسه، ومن خلال تأويله.

و السبب في تلك الخطورة، أنه في هذه المرة يعود الفساد باسم الدين، ويعود الظلم وهو يأتزر مشروعيته، وتعود الجاهلية وهي ترتدي قداسته. و ما يمكن أن يسببه ذلك من مفاسد عظيمة، وأضرار كبيرة، لا يقاس بها شيء، عندما تُستغل المعاني الدينية، للدفع أكثر نحو إنتاج الفساد، وعندما تُستغل المشاعر الدينية لترسيخ الظلم، والحفاظ على مصالح تلك القوى والجماعات. ومن هنا كانت ضرورة لإيجاد آلية مستديمة بعد انتصار الدين في معركة التنزيل وتثبيت أركانه- تعمل على حفظ الدين، ومنع العبث بتأويله. و تكون قادرة على بيان المعاني الحقة للدين، والحؤول دون نجاح تلك القوى و الجماعات في السطو على مشروعيته، والتسلل الى تفسيره.

وهنا تكمن فلسفة الإمامة، حيث إن من يتولّى تلك المهام الحساسة والخطيرة جدّاً بعد وفاة النّبي(ص) هو الإمام المعصوم، وتحديداً الأئمّة من أهل بيت النّبي(ص) . وبما أنّ أوّل من تمّ تنصيبه لتلك المهام هو الإمام علي(ع)، وبما أن ذلك التّنصيب قد جرى في يوم الغدير، الثّامن عشر من ذي الحجّة؛ فإن يوم الغدير يعني يوم الحفاظ على الدّين وحقائقه، و هو يعني يوم البيان الحق للكتاب وتأويله. هو يوم مواجهة المشروع الرامي الى الالتفاف على ما أنجزه الرسول(ص) وبناه. هو يوم اختيار من يحول دون السطو على مشروعيّة الدين وتفسيره. هو يوم بقاء الدّين كما أنزله الله تعالى، واستمراره بعد وفاة الرّسول(ص)، كما جاء به الرسول(ص) نفسه، وبلغه لإمته. لتلك الدّلالات، ولتلك المعاني، ولأهميّة تلك الوظائف وخطورتها، وارتباطها بيوم الغدير، كان عيد الغدير أفضل الأعياد واعظمها على الإطلاق.